

فلما رأى سارة - وهو يراقب الطريق من وراء النافذة - قد أقبلت فى أول الطريق قبل الموعد بدقيقتين أو ثلاث ، ولاحظ للمرة الثانية أنها تتحرى الدقة فى رعاية المواعيد ، فرح بمعرفتها ورحب بالعلاقة بينه وبينها . وأوجس فى حينها أن تشب هذه العلاقة جذورها فى فؤاده فيتبعها ما لا بد أن يتبعها من لواجج ونكبات وفواجع ، وأيقن أن هذه الفتاة تفهم كثيراً جداً . لأن الفتاة التى تفهم أن لها قيمة غير قيمة الدلال المصطنع ، وأن العاطفة أنفس من أن تشاب بالتنكيد والتكدير لغير داع ، لهى صاحبة ذكاء مطبوع يفقه قيمة الزمن وقيمة الشعور وقيمة السرور ، ولا يقتصر ذكاؤها على النظر إلى عقربى الساعة لإدراك الميعاد !

وفى الحق أن سارة قد بهرت همأماً بأشياء كثيرة فى أول زيارتها لمنزله غير رعايتها للمواعيد .

فلو كانت تعرف ما يروقه ويستهو به من النساء معرفة تفصيل وتدقيق لحسب أنها تجوز امتحاناً عسيراً وتتعمد أن تخرج منه بالتزكية التى ليس بعدها تزكية ، والشهادة التى ليس فوقها شهادة .

هو قليل المرح فيروقه من المرأة أن تكون مرحة بغير تكلف ولا مبالغة ، ويسمى المرح الذى يزين المرأة ويشوق الرجل مرحاً «موقعاً» تشبيهاً له بالغناء الذى ينطلق انطلاقاً وينبعث انبعثاً ولكنه يقف حينما يحسن به الوقوف ، ويسكن حينما يطيب منه السكون : يقف ويسكن لا على اقتضاب موحش وانقطاع ناشز ، ولكن على نغمة تفصل اللحن من اللحن أو على قافية تختم البيت بعد البيت ، فهو الوقوف الذى يريح ويشوق ويزيد لذة الإيقاع وطرافة السماع .